الفكر التاريخي للجبرتي
من خلال كتابه
عجائب الآثار في التراجم والأخبار

د. مالك محمد أحمد رشوان

أثار تاريخ الجبرتي — عجائب الآثار في التراجم والأخبار — اهتماما كبيرا لم يقتصر على المهتمين من المصريين والعرب بتاريخ مصر الحديث بل امتد الى المستشرقين فاعتبروه مصدر على درجة كبيرة من الأهمية باعتباره صورة تفصيلية للحياة الشرقية وعدوه ذا قيمة اجتماعية عظيمة(١)، واعتبره بعضهم أهم مصدر بالنسبة للفترة من ١٨٠٥:١٨٢٠(٢)

ونظرا لتلك الأهمية فانني لا اعتقد أن باب البحث حول الجبرتي ومؤلفاته يمكن أن يوصد بانتهاء الندوة التي أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (١٦ : ٢٣ ابريل ١٩٧٤م) ، والحقيقة أن كثيرا من الأساتذة المهتمين بتاريخ مصر وعصر الجبرتي من عرب وغيرهم قد تقدموا بالكثير من البحوث الى تلك الندوة ، وقد غطت تلك البحوث جوانب عدة ، ولكن شخصية الجبرتي ومؤلفاته لم تزل تحتاج الى القاء المزيد من الأضواء عليها مثلها في ذلك مثل كثير من جوانب تاريخ مصر الحديث الذي يحتاج الى الكتابة بصورة أكثر حيدة حتى يتمكن الباحثون من الوصول الى الحقائق التاريخية .

---

(١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى — الجبرتي مؤرخا ص ٣٥ من دراسات وبحوث عن الجبرتي — وهي مجموعة البحوث التي قدمت الى ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٦ : ٢٣ أبريل ١٩٧٤م ونشرتها الهيئة العامة للكتاب — مصر ١٩٧٦م .

(٢) هيلين أن ريتلين — الاقتصاد والادارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر — ص ٣٩٩ — رسالة دكتوراه منشورة — ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ومصطفى الحسيني — دار المعارف — مصر — ١٩٦٧م

وهذه محاولة لتقديم دراسة عن فكر الجبرتى التاريخى فى ضوء مجموعة من القواعد والأسس التى اصطلح عليها علماء منهج البحث التاريخى ، وقد تمحورت تلك الدراسة حول مجموعة من الأسئلة هى : هل للجبرتى فكر تاريخى مميز ؟ وأين يقع ذلك الفكر من التاريخ بين المفهوم والمنهج والوطنية ؟

أولا : كلمة موجزة عن الجبرتى من حيث المولد والنشأة والثقافة :

ولد عبد الرحمن الجبرتى فى ١٧٥٤م ، وتلقى تعليمه الأولى فى بعض الكتاتيب بحى الأزهر ثم انتقل بعد ذلك الى مدرسة السنانية بالصاغة والتحق برواق الشام فى الأزهر وهو لم يتعد العاشرة من عمره ، كما أتم حفظ القرآن وهو دون الحادية عشرة ، وتلقى الفقه على مذهب الامام أبى حنيفة على يد صديق أبيه الشيخ عبد الرحمن ، وقد كان للبيئة أثرها فى تشكيل ثقافة الجبرتى منذ نشأ فى أسر اشتهر معظم أفرادها بالعلم ، وقد أخذ عن أبيه العلوم الرياضية والفلكية ، كما أتيحت له فرصة التتلمذ على يد كثير من الشيوخ الذين التقى بهم فى بيت والده ، وتردد على حلقاتهم الدراسية،وورث مكتبة زاخرة بالعلوم والآلات الفلكية عن والده(٣) .

وجملة فالجبرتى نشأ فى بيئة علمية ، وتلقى تعليما دينيا وشرعيا، وأفاد من اهتمامات أبيه الفلكية والرياضية .

ترى ــ ماذا أفرزت تلك النشأة ، وما هو أثرها على فكر الجبرتى التاريخى وللاجابة على تلك التساؤلات لابد أن نحدد مفهوما واضحا وغاية محددة للتاريخ .

---

(٣) د. جمال زكريا قاسم : عبد الرحمن الجبرتى ، سيرة وتقييم ص ٤٧ دراسات ندوة الجبرتى .

حول مفهوم التاريخ :

التاريخ فن غزير المذهب ، جم الفوائد شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم والأنبياء فى سيرهم والملوك فى دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا(٤) .

بهذا التعريف استهل العلامة عبد الرحمن بن خلدون تعريفه للتاريخ ، مركزا على الأنبياء والملوك نظرا لقوة تأثيرهم وتأثر المجتمعات بهم ، واذا سلمنا بأن هذا التعريف قد وضع فى زمن سابق على الشيخ الجبرتى فهذا يدعو الى الاعتقاد بأنه قد اطلع عليه ووعاه .

أما تعريف المحدثين للتاريخ فهو أن التاريخ نوع من البحث العلمى يندرج تحت ما نسميه العلوم — ألوان التفكير — التى تبعث فينا أسئلة معينة نحاول الاجابة عليها ، وهو مجموعة الأعمال التى قام بها الانسان فى الماضى ، فهو علم خاص بالجهود الانسانية ، أو هو محاولة تستهدف الاجابة عن الأسئلة التى تتعلق بالجهود البشرية فى الماضى(٥) .

ويتفق القدامى والمحدثون على أن التاريخ لا يمتد الى المستقبل ، فالمهمة الملقاة على عاتق المؤرخ هى ايضاح المراحل التى انتهت بنا الى هذه الصورة الحاضرة ، وليس فى استطاعة المؤرخ — اذن — أن يرينا الصورة التى ستفسر عنها الأحداث أو تتمخض عنها التطورات ، وهذا يوضح الفرق البين بين الدراسات الاجتماعية Social Science

---

(٤) عبد الرحمن بن خلدون — المقدمة — ص ٩ .

(٥) كولنجوود — فكرة التاريخ ص ٤١ . ومذكرات كولنجوود والتى نشرت تحت عنوان فكرة التاريخ مثلت للطباعة فى عام ١٩٣٦م.

وبين العلـوم القياسية (البحتـة) Part Sciences اذ لا توجـد فى الدراسات الاجتماعية قوانين علمية يمكن أن يخضع لها المستقبل(٦) .

ولم يقف الجبرتى بعيدا عن التعريفين السابقين فقد ذكر فى مقدمة كتابه (عجائب الآثار) تعريفـا للتاريخ جاء فيه : (اعلم أن التاريخ علم يبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم ، وموضوعه أحوال الأشخاص الماضـية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكمـاء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم ، والغرض منـه الوقوف على الأحوال الماضـية من حيث هى وكيف كانت)(٧) .

ويتفق الجبرتى مع كولنجود فى أن التـاريخ علم ، وأن دائـرة اختصاص المؤرخ محصورة فى أخبار الأشخاص الماضين (على حد قول الجبرتى) أو الأعمال التى قام بها الانسان فى الماضى (على حد تعبير كولنجود) ، كما يتفق الطرفان عـلى أن التاريخ علم يقـوم على بحث واستقصاء حـوادث الماضى ، كما يدلل عـلى ذلك لفظ Historia (المقتبس من أصل يونانى) أى أنه علم يبحث فى كل ما يتعلق بالانسان منذ بدأ الانسان يترك آثاره على الصخر أو الأرض بتسجيل أو وصف أخبار الحوادث التى ألمت بالشعوب والأفراد(٨) .

وتضيق وتتسع دائرة نفوذ عمـل المؤرخ حسب رؤيته الشخصية وحسب تقديره للشخصيات المؤثرة ــ أو الأكثر تأثيرا فى المجتمع،وبينما

---

(٦) كولنجود ــ المرجع السابق ــ ص ٤٢ .

(٧) عبد الرحمن الجبرتى ــ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ــ جـ ١ ص ٦ .

(٨) د. حسن عثمان ــ منهج البحث التاريخى ــ ص ١١ .

نرى ابن خلدون والجبرتى يحددون مجموعة من طوائف المجتمع جعلوها تمتلك خاصية التأثير البارز فى المجتمع(٩) ، نرى أن كولنجوود يوسع دائرة اختصاص المؤرخ لتشمل سائر البشر كل حسب تأثيره ، ليصنع الجميع تاريخا مشتركا يقوم على مجموع الجهود الموحدة .

وباستعراض تلك التعريفات يتبين لنا أن الجبرتى قد وضع فى مقدمة كتابه ــ عجائب الآثار ــ تعريفا شاملا للتاريخ يقترب كثيرا من التعريفات السابقة عليه واللاحقة له .

هدف التاريخ :

تاريخ البشرية سجل للتقدم ، سجل تكامل المعرفة وازدياد الحكمة ، سجل التطور المستمر فكل جيل ينقل الى الجيل الذى يليه تلك الكنوز التى توارثها بعد أن يكون قد صقلها بتجاربه وأضفى عليها كثيرا من انتصاراته ، ويهدف التاريخ الى معرفة الانسان بنفسه ، واذا كان التاريخ يحيطنا علما بأعمال الانسان فى الماضى فهو فى الوقت ذاته يكشف لنا عن حقيقة هذا الانسان(١٠) .

وقد عرف الانسان بأنه حيوان يستطيع الاستفادة من تجارب الآخرين ، أى النشاط الانسانى السابق ، وهذا الأمر يبرز لنا أهمية معرفة الانسان بحقيقة الماضين حتى يستطيع معرفة نفسه ، فهو يعرف

---

(٩) فى دراستنا لبعض الظواهر التاريخية لاحظنا أن الجبرتى لم يكن ملتزما التزاما دقيقا بالتأريخ لمجموعة الطوائف التى حددها فى تعريفه ، وانما سجل كثيرا من الأحداث مشتملة على التفاصيل الكاملة الدقيقة والبسيطة مهما كان مصدر حدوثها .

(١٠) كولنجوود ــ المرجع السابق ص ٢٦٣ .

نفسه من خلال مفهوم واضح له وللآخرين الذين سبقوه من البشر(١١) .

ويهدف التاريخ عند الجبرتى الى الاعتبار بأحوال الماضين والتنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم المذكورين السالفين ، ويستجلب خيار أفعالهم ويتجنب سوء أقوالهم ويزهد فى الفانى ويجتهد فى طلب الباقى(١٢) .

ويبدو واضحا فى هدف التاريخ عند الجبرتى غلبة التأثر بثقافته الدينية الاسلامية الرفيعة التى جعلته يحاول ربط الدنيا بالآخرة ، أو يحاول الحث على صلاح الدنيا والآخرة معا بالاستفادة من تجارب الآخرين .

ولا أعتقد أن الجبرتى وكولنجوود قد اتفقا تماما أو اختلفا البتة فى علاجهما لهدف التاريخ فكلاهما ــ مثلا ــ يسلم بأن التاريخ هو مجموعة من تجارب الآخرين ، وطبعى أن تخضع التجربة الى الصواب والخطأ ، وكلاهما يرى أهمية الاستفادة من تجارب الآخرين وتختلف نتيجة الاستفادة عند كليهما فتغلب على مؤرخنا ــ الجبرتى ــ طبيعة نشأته وثقافته فيرقى بالتاريخ الى الدرجة التى يمكن أن تؤهل الانسان ــ لو أحسن الاستفادة مما فيها من تجارب ــ الى صلاح أمره فى الدنيا والمثوبة عند الله فى الآخرة . فى حين نرى أن كولنجوود يقصر الفائدة على معرفة الانسان بنفسه من خلال تجارب الآخرين ، وكأن الجبرتى يريد أن يخلع على التاريخ صفة المادية المصطبغة بالصبغة الروحية ، بينما نراه ماديا بحتا لدى كولنجوود .

---

(١١) كولنجوود ــ المرجع السابق ص ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٠١ .
(١٢) الجبرتى ــ المرجع السابق جـ ١ ص ٦ .

وتوضح تلك الرؤية لدى الجبرتى وجهة نظـر مؤرخ مسلم يؤمن بأن تلك الدنيا هى طريق موصل الى الحياة الآخرة ، وأن على الانسان أن يسلك فيها طرق الخير ومناهج الصواب مقتديا بالأفعال الحسنة لمن سبقه حتى يهذب من نفسه فى الدنيـا ويضمن المثـوبة من الله سبحانه وتعالى فى الآخرة •

بين الطبيعة والتاريخ :

التاريخ ضرب من ضروب المعرفة ، فليس هو قصص الأحداث المتعاقبة وانما تمتد مهمة المؤرخ الى البحث وراء الأحداث ، فاذا كان المؤرخ يقوم بعرض الأحداث فانمـا ذلك لأنها هى المظهر التـاريخى للأفكار ، فاهتمامه بتلك الأحـداث يكون الى الحـد الذى تنهض فيه الأحداث تعبيرا عن الأفكار •

وبحسب المقدرة العقلية للمؤرخ يمكنه التفكير بعد اهتمامه بالأحداث التى هى المظهر الخارجى للأفكار التى يجد فى البحث عنها ، ولذلك قيل ان تاريخ العالم هو محكمة العالم ، فالمؤرخ نفسه هو الذى يقف أمام منصة القضاء وهناك يكشف عن مواطن الضعف والقوة فى عقليته •

ويبدو الفرق واضحا بين العلوم القياسية التجريبية Part Sciene من ناحية وبين العلوم الاجتماعية الانسانية Social Science من ناحيـة أخرى ، فعالم الكيمياء ـ مثلا ـ يخضع تجارب الأقدمين للبحث والملاحظة حتى يصـل الى نتيجة مادية جديدة فيضيف قانونا جديدا (١٣) •

أما المؤرخ فانه يتناول الحدث المـاضى وينفذ الى أعماقه ليتبين الفكرة التى يعبر عنها الحدث ، فبينما نجد وظيفة الكيميائى هى تحديد

---

(١٣) كولنجوود ـ المرجع السابق ـ ص ٣٨٠ •

الحدث نفسه نجد وظيفة المؤرخ هى البحث عن الفكرة التى يعبر عنها الحدث ، وهذا الأمر يجعل مهمة المؤرخ أكثر تعقيدا من مهمة رجل العلم التجريبى القياسى •

فالتاريخ يحاول الكشف ليس عن مجرد الحادثة وانما يبحث عن الفكرة التى تكون الحادثة تعبيرا عنها ، والكشف عن هذه الفكرة معناها وفهمها ، واذا ما تثبت المؤرخ من الحقائق فلا توجد عمليـــة بعد هذا تتعلق بالبحث عن أسبابها ، لأنه حين يعرف ما حدث يصـــبح على بينة من سبب حدوثه •

ويشترك المؤرخ مع غيره من الدارسين فى أمر أن المؤرخ أو الباحث ليس له أن يدعى صدق فقرة من فقرات المعرفة ، الا اذا استطاع تبرير ذلك القول ، فالتـــاريخ هنا يقوم على الاستدلال تأسيسا على قانون مادى محدد ، بقدر ما هو استدلال استنباطى (يدخل تحت قولنا ممكن أو محتمل الوقوع) (١٤) •

وعلى المؤرخ ذاته تقع المسئولية عما يذكر من وقائع فاذا ما أورد مثلا رواية على لسان أحد الشهود ، أو عبارة وردت على لسان أو بقلم غيره فانه يعتبر مسئولا عنها حيث أصبحت جزء من فكرته وموضـــوعه الذى يؤرخ له اللهم الا اذا ذكر هذا القول ثم علق عليه ونقده وأيد وجهة نظر مخالفة له •

وطريقة المؤرخ لاستبانة الأفكار التى يحاول الكشف عنها هى أن يتمثل الأفكار فى عقله ، وهذا التمثيل يتحقق بالحد الذى يستطيع المؤرخ عنده أن ينصرف الى المشكلة التى يعرض لها بكامل قواه العقلية ، وبما توفر لديه من علم ، ويصدق المؤرخ كلما كانت قراراته متفقة مع قوانين

---

(١٤) كولنجوود ــ المرجع السابق ص ٤٣٥ : ٤٤٠ •

ونواميس الحياة ، حتى لا تعد مقولته ضربا من الأساطير (أو التاريخ الشعرى الرومانتيكى) الذى يهتم بالتنسيق بين الأحداث والعبارات ، وابراز بعضها واخفاء الآخر ، وبذا يكون قد انصرف عن الضالة المنشودة للمؤرخ الذى يبحث عن الحقيقة ، والتى يريد أن يضعها واضحة أمام الأجيال ويترك لهم جوانب التأثر والعظة والاستفادة .

التعامل مع الحدث التاريخى :

يرى البعض أن كتابة التاريخ تقوم على عناصر أساسية هى الذاكرة ، والحجة فى الموضوع أو الثقاة الذين نقلت عنهم الرواية ، ومنهم من يرى أن المؤرخ مستقل فى التكييف التاريخى للحدث استدلالا واستنتاجا عن الأحداث التى سبقت ، اذ يضع المؤرخ المصادر التى ينقل عنها موضع الشهود ، وعن طريق مناقشتهم يتمكن من انتزاع البيانات التى امتنعوا عن الادلاء بها فى نصوصهم الأصلية (١٥) .

والمؤرخ محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان به بعيدا عن المزلات والمغالط ، لأن الأخبار التى اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم بأصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع المؤرخون والمفسرون وأئمة النقل فى المغالط فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا وثمينا ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بمثيلاتها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار فضلوا عن الحق (١٦) .

---

(١٥) كولنجوود . فكرة التاريخ ص ٤١١ .

(١٦) عبد الرحمن بن خلدون ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٩ ، ١٠

والمؤرخ لا بد أن يكون محبا للدرس جلدا صبورا ، وأن يتحلى بالشجاعة والاخلاص والأمانة ، ومن الضرورى للمؤرخ توفر ملكة النقد لديه ، وأن ينأى بنفسه عن حب الشهرة والظهور ، وألا يحفل بالكسب والألقاب والجاه ، وأن يكون ذا عقل واع منظم مرتب لكى يستطيع التمييز بجلاء بين الحوادث وألا يكون متحيزا ، وأن يتميز بقوة الاحساس والذوق والعاطفة والتسامح بالقدر الذى يتيح له أن يدرك آراء الغير ونوازع الآخرين (١٧) .

وأعتقد أن الجبرتى قد توفرت فيه معظم تلك الصفات فأضحت حولياته من أهم المراجع التاريخية فى عصره .

وسنحاول من خلال دراسة لحادثة تاريخية (هى حملة فريزر على مصر) كما ذكرها الجبرتى أن نصل الى تحديد موقع الجبرتى كمؤرخ له فكره وأسلوبه فى معالجة الظواهر التاريخية .

حملة فريزر كما أوردها الجبرتى

سوف نفترض مجموعة من الأسئلة ينبغى أن تتضمنها التغطية الكاملة لحملة فريزر على مصر ، ومن خلال اجابة الجبرتى على هذه الاسئلة يمكن الحكم على شخصيته وفكره التاريخى .

(أ) ما الدوافع والأسباب التى أدت الى حملة فريزر ؟ .

(ب) ما هى التفاصيل التى انتهت اليها الأحداث العسكرية للحملة ؟ .

(جـ) ما هى ردود فعل ذلك الحدث على المستويين المحلى والدولى ؟ .

---

(١٧) د. حسن عثمان ـ منهج البحث التاريخى ـ ص ١٨ : ٢٠

(د) كيف انتهت تلك الحملة ، وماذا ترتب عليها من نتائج ؟ .

(أ) الدوافع والأسباب :

يشير الجبرتى فى حديثه عن الحملة الى سببين أحدهما دولى والآخر محلى ، أما السبب الدولى فهو وقوف الانجليز الى جانب روسيا ضد الباب العالى بعد أن تعكر صفو العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية ، ثم التعاون الروسى الانجليزى ضد نابليون بونابارت ، فقد اعتبر الجبرتى أن تقاربا روسيا بريطانيا قد حدث فى مواجهة التقارب العثمانى الفرنسى ، وساءت العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية بصورة شجعت بريطانيا على القيام بتلك الحملة .

ولا ينسى الجبرتى الاشارة الى أن بريطانيا كانت تفكر فى مشروع كهذا ، ولكن (سبب تأخرهم فى المجيىء لما بينهم وبين العثمانى ... فلا يتعدون على ممالكه من غير اذنه لمحافظتهم على القوانين ، فلما وقعت الغرة بينهم وبينه .. انتهزوا الفرصة وأرسلوا هذه الطائفة) (١٨) .

والسبب الثانى لتلك الحملة سبب محلى داخلى حيث طلب الألفى وبعض مماليك مصر مساعدة ومعونة بريطانيا للوقوف فى وجه محمد على الذى كان قد بدأ فى الاستحواذ على السلطة فى مصر والعمل على تقليص والقضاء على نفوذ المماليك فى مصر فأتت تلك الحملة لـ (... الألفى فى انتظارهم بالبحيرة) وقد (حضر الانكليز فوجدوا الألفى قد مات فلم يسعهم الرجوع فأرسلوا الى الأمراء القبليين يستدعونهم ليكونوا مساعدين لهم على عدوهم ويقولون لهم انما جئنا الى بلادكم باستدعاء الألفى لمساعدته ومساعدتكم فوجدنا الألفى قد

---

(١٨) عبد الرحمن الجبرتى – مرجع سبق ذكره جـ ٣ ص ١٤٢، ١٤٣

مات ٠٠٠٠) وطلب الانجليز سرعة حضـور الأمراء للقـاء الانجليز واستغلال تلك الفرصـة السانحة لاستعادة نفوذهم والقضـاء على محمد على (١٩) ٠

(ب) الأحداث العسكرية للحملة :

أشـار الجبرتى الى حفز عثمانى وتنبيهات على الادارة المصرية بضرورة تحصـين الثغور والوقوف على أهبة الاسـتعداد لمواجهة أى هجوم محتمل على الثغور المصرية ، فمنذ قيام الحرب الروسية العثمانية وتحالف الجانب الانجليزى مع روسيا دعى الباب العالى مصر الى مزيد من اليقظة والحذر وبخاصة من الجانب الانجليزى ٠

ففى منتصف شهر ذى الحجة سنة ١٢٢١هـ (وردت مكاتبات ٠٠٠ بوقوع الحرب بين العثمانيين والموسـكوب ٠٠ تأمر بالتيقظ والتحفظ وتحصين الثغور فربما أغاروا على بعضـها على حين غفلة) ولم تلبث الادارة المصرية أن لبت نداء الباب العالى فـ (٠٠ شرع أهل الاسكندرية فى تحصين قلاعها وأبراجها وكذلك أبو قير ، وأرسل كتخدابك من يتقيد ببناء قلعة بالبرلس) ويشير الجبرتى الى قلق شهدته الادارة المصرية وأخذ كبار المسؤولين يتشاورون فيما بينهم ثم أرسلوا الى محمد على باشا (فى أسيوط) يعلمونه بتلك الأنباء (٢٠) ٠

ولم يشر الجبرتى الى ما كان يجرى من استعداد لتلك الحملة على الجانب البريطانى فلم تتوفر لديه المصادر الدالة على مدى حجم تلك الاستعدادات ، ولذا فانه لم يستطع التحدث الا بالقدر الذى توفر لديه بعد وصول الحملة الى مصر وبلوغه أخبارها ٠

---

(١٩) عبد الرحمن الجبرتى ـ مرجع سبق ذكره جـ ٣ ص ١٨٠، ١٨١

(٢٠) عبد الرحمن الجبرتى ـ مرجع سبق ذكره جـ ٣ ص ١٤٢، ١٤٣

وقد واصل حديثه عن الاستعدادات فى مصر فقال (وفى يوم الثلاثاء ٧ محرم ١٢٢٢هـ عملوا جمعية فى بيت القاضى حضرها المشايخ والأعيان ، وذكروا أنه لما وردت الأوامر بتحصين الثغور ، فأرسل الباشا سليمان أغا ومعه طائفة من العسكر وأرسل الى أهالى الثغور والمحافظين عليها مكاتبات) يستوضح احتياجاتهم فردوا بأنهم لديهم القوات الكافية لمثل رد هذا العدوان ، ويعلق الجبرتى على اهتمام محمد على باشا بتحميل أهالى الثغور والمحافظين مسئولية الدفاع بقوله : أن محمد على باشا قد قام بهذا حتى لا (يتوجه عليه اللوم من السلطنة أو ينسب اليه التفريط) (٢١) .

وقد عرض الجبرتى مجموعة من الأخبار عن الأعمال العسكرية التى قامت بها حملة فريزر للاستيلاء على الاسكندرية ، والتحرك منها نحو داخل مصر ، وقال فى أحدها (.. وفى تاسعه (٩ محرم ١٢٢٢هـ) وردت مكاتبات مع السعاة من ثغر اسكندرية وذلك يوم الخميس وقت العصر وفيها أخبار بورود مراكب الانكليز ، وعدتها اثنان وأربعون مركبا فيها عشرون قطعة كبارا والباقى صغار فطلبوا الحاكم (وقد كان حاكم الاسكندرية آنذاك أمين أغا) والقنصل وتكلموا معهم وطلبوا الطلوع الى الثغر فقالوا : لا نمكنكم من الطلوع الا بمرسوم سلطانى ، فقالوا لم يكن معنا مراسيم وانما جئنا لمحافظة الثغر من الفرنسيس فانهم ربما طرقوا البلاد على حين غفلة ، وقد أحضرنا صحبتنا خمسة الآف من العسكر (٢٢) نقيمهم بالابراج لحفظ البلد والقلعة والثغر ، فقالوا لهم : لم يكن معنا اذن وقد اتتنا مراسيم بمنع كل من وصل عن الطلوع من أى جنس كان ، فقالوا لا بد من ذلك ، فاما أن تسمحوا لنا فى الطلوع

---

(٢١) عبد الرحمن الجبرتى ـ ج ٣ ص ١٧٧ .

(٢٢) يشير الجبرتى فى موضع آخر الى عدد جنود الحملة حوالى ستة آلاف جندى انظر ص ١٨٠ ج ٣ المرجع السابق .

بالرضا والتسليم واما بالقهر والحرب والمهلة فى رد الجواب بأحد أمرين، أربعة وعشرون ساعة ثم تندمون على الممانعة فكتبوا بذلك الى مصر فلما وصلت المكاتبات اجتمع كتخدابك وحسن باشا وبونابارته الخازندار وطاهر باشا والدفتردار والروزنامجى وباقى اعيانهم،وذلك بعد الغروب وتشاوروا فى ذلك ثم اجتمع رأيهم على ارسال الخبر بذلك الى محمد على باشا ويطلبونه للحضور هو ومن بصحبته من العساكر ليستعدوا لما هو اولى وأحق بالاهتمام ففعلوا ذلك وأرسلوا المكاتبة اليه صبيحة الجمعة ١٠ محرم ١٢٢٢هـ) (٢٣) ٠

ويشير الجبرتى الى استيلاء الانجليز على الاسكندرية فيقول (وفى ١٧ محرم ١٢٢٢هـ ورددت الأخبار الصحيحة بأخذ الاسكندرية والاستيلاء عليها يو م الخميس المتقدم تاسع الشهر (فى محرم ١٢٢٢هـ) ودخلوها وملكوا الأبراج يوم الأحد صبيحة النهار وسكن ساري عسكرهم (قائدهم) بوكالة القنصل وشرطوا مع أهالى البلد شروطا منها أنهم لا يسكنون البيوت قهرا عن أصحابها بل بالمؤاجرة والتراضى ، ولا يمتهنون المساجد ولا يبطلون منها الشعائر الاسلامية وأعطوا أمين أغا الحاكم أمانا على نفسه وعلى من معه من العسكر وأذنوا لهم بالذهاب الى أى محل أرادوه ٠٠ ومن شروطهم أن محكمة الاسلام تكون مفتوحة تحكم بشرائعها ولا يكلفون أهل الاسلام بقيام دعوى عند الانكليز بغير رضاهم ، ولم يحصل لهم من المكروه من كامل الوجوه)(٢٤) ٠

وهكذا سرد الجبرتى كيفية وصول المحلة الى الاسكندرية والانذار والمهلة الموجهة الى حاكم الاسكندرية ، وتحدث عن كيفية تعامل الانجليز

---

(٢٣) عبد الرحمن الجبرتى ـ المرجع السابق جـ ٣ ص ١٧٧ ، ١٧٨

(٢٤) عبد الرحمن الجبرتى ـ المرجع السابق جـ ٣ ص ١٨٠ ٠

مع أهل الاسكندرية ولم يمنعه احساسه بأنهم معتدون أتوا للاستيلاء على البلاد بأن يذكر حسن معاملتهم للأهالى وعدم تعرضهم للأهالى بسوء وعدم اكراههم على فعل غير مستحب لديهم •

(ج) ردود فعل الحملة محليا ودوليا :

تنازعت مصر فى مطلع القرن التاسع عشر قوتين احداهما محمد على باشا وادارته وثانيهما قوة المماليك وقد اصطرع الفريقان على السلطة والسيادة على مصر فمحمد على بعد أن تسلم السلطة بارادة زعماء الشعب يعض على مكاسبه بالنواجذ ، والمماليك الذين أحسوا بتهاوى سلطتهم يريدون الحفاظ على وضعهم المميز تحت الحكم العثمانى لمصر ، وقد تباين موقف كل من الطرفين وان كان أحدهما أو كلاهما لم يكن له التأثير الحاسم فى حملة فريزر •

ويتلخص موقف محمد على باشا فى أنه لما وصل اليه المكتوب الذى يدعوه الى العودة للذود عن مصر ضد الهجوم الانجليزى رد بمكتوب آخر أوضح فيه عزمه على الرجوع الى القاهرة لمحاربة الانجليز، ولكن حالة من القلق والارتباك سيطرت عليه ابان سماعه لأخبار فتح باب التفاهم بين المماليك والانجليز ، وهنا نرى محمد على باشا يحاول جاهدا منع حدوث ذلك التقارب فتحرك فى محورين :

أحدهما : عدم مغادرة منطقة تمركز المماليك فى أسيوط والمنيا حتى لا يترك لهم متنفسا وحتى يوقف أى مشروع للتفاهم الانجليزى المملوكى •

ثانيهما : ابداء استعداده لمصالحة المماليك شريطة عدم تعاونهم أو اتصالهم بالانجليز ، واستعداده لتنفيذ كل مطالبهم وتحرير عقد صلح بهذا •

وقد أرسل محمد على باشا الى المشايخ يدعوهم لفتح باب حوار مع المماليك لاجراء الصلح حسب شروطهم ومطالبهم(٢٥) .

وظل محمد على فى أسيوط وما حولها قرابة الشهر فلم يعد الا بعد تحسن الموقف فى الاسكندرية والوجه البحرى بهزيمة الانجليز فى رشيد، واطمأنا لعدم اتفاق المماليك والانجليز ، ولم يعد ممحد على باشا الى القاهرة الا فى شهر صفر ١٢٢٢هـ يقول الجبرتى (وفى ٧ صفر ١٢٢٢هـ) وبعد وصوله الى القاهرة (طلع الباشا الى القلعة وصحبته قنصل الفرنساوية يهندس معه لأماكن ومواطن الحصار والقنصل المذكور مظهر الاهتمام والاجتهاد ويسهل الأمر ويبذل النصح ويكثر من الركوب والذهاب والاياب وأمامه الخدم وبأيديهم الحراب المفضضة وخلفه ترجمانه واتباعه)(٢٦) .

وفى آخر جمادى الأولى ١٢٢٢ هـ قوى عزم الباشا على السفر لناحية الاسكندرية فاتخذ طريقه اليها .

وهكذا كان موقف محمد على يجمع بين الحيطة والحذر والاستعداد معتقدا بأن عليه أن يقف فى وجه المماليك أولا أو يضمن جانبهم ثم يتفرغ لحملة فريزر أو يوجه جهوده نحوها .

أما موقف المماليك فقد اتضح بعد وصول حملة فريزر بفترة وجيزة، اذ اختلفوا فيما بينهم بشأن التعاون مع الانجليز ورجحت كفة الرافضين التعاون مع الانجليز مما سهل من مهمة محمد على باشا .

ويورد الجبرتى مواقف فردية لبعض أمراء المماليك فيقول (... وكان عثمان بك معزولا عنهم وعنده جيش كبير فأرسلوا اليه

---

(٢٦) الجبرتى المرجع السابق جـ ٣ ص ١٩١ .

يستدعونه فقال : أنا مسلم هاجرت وجاهدت وقاتلت الفرنساوية،والآن أختم عملى وألتجىء الى الأفرنج وأنتصر بهم على المسلمين ... أنا لا أفعل ذلك) وقد وافقه على ذلك الرأى يوسف بك(٢٧) .

وقد استشعر محمد على الخوف من التقارب المملوكى الانجليزى فاتجه الى تشديد قبضته وتكثيف عملياته ضدهم كما جد فى طلب الصلح وأرسل الى المماليك وفدا ضم الشيخ سليمان الفيومى،والشيخ ابراهيم السحينى ، والسيد محمد الدواخلى ، ولكن زعماء المماليك طلبوا اتمام الصلح على يد الشيخ الشرقاوى (شيخ جامع الأزهر) والشيخ الأمير (أحد كبار علماء الأزهر) والسيد عمر النقيب (نقيب اشراف وممثل أكبر سلطة شعبية)(٢٨) .

وحينما وصل الوفد الى زعماء المماليك بأسيوط والمنيا أبدى المماليك خوفهم من عدم صدق نوايا محمد على وتساءلوا : كم مرة يراسلنا فى الصلح ثم يغدر بنا ، ويحاربنا ، وتعجل محمد على باشا اجراء الصلح ويشير الجبرتى الى نهاية تلك المساعى فيقول وفى نهاية الأمر (انخدعوا لذلك وكتبوا له أجوبة) وبذلك استطاع محمد على باشا ابعاد شبح التفاهم بين المماليك والانجليز .

أما موقف المشايخ والشخصيات المؤثرة على المستوى الشعبى فيقول عنهم الجبرتى ، انهم قد تحمسوا لقتال الانجليز ، وأبدوا استعدادا طيبا وبدأوا يعدون العدة لذلك (ففى يوم الأحد ٢٦ محرم سنة ١٢٢٢هـ) نبه السيد عمر النقيب على الناس وأمرهم بحمل السلاح ، والتأهب للجهاد فى الانجليز ، وحتى مجاورى الأزهر وأمرهم

---

(٢٧) عبد الرحمن الجبرتى ـ المرجع السابق ـ جـ ٣ ص ١٨١:١٨٣

(٢٨) عبد الرحمن الجبرتى ـ المرجع السابق ـ جـ ٣ ص ٢٠٧ .

بترك حضـــور الدرس وكذلك أمر المشـــايخ المدرســـين بترك القاء الدروس •

ويضيف الجبرتى (وفى يوم الثـــلاثاء ٢٨ محـــرم ١٢٢٢هـ حصلت جمعية بين القاضى وحضر حســـن باشا وعمر بك الدفتردار وكتخدا بك والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير وباقى المشايخ فتكلموا فى شـــأن حادثة الانكليز والاســـتعداد لحربهم وطردهم فانهم أعـــداء الدين والملـــة وقد صاروا بذلك أخصـــاما للسلطان فيجب على المسلمين دفعهم ويجب أيضا أن يكون الناس والعســـكر على حال الألفة والشفقة والاتحاد ، وأن تمتنع العساكر عن التعـــرض للناس بالأيذاء كما هو شـــأنهم ، وأن يساعدوا بعضـــهم بعضا على دفع العـــدو ثم تشاوروا فى تحصين المدينة) ، كما أسرعوا الى طلب عـــدد من المقاتلين وكتبوا مكاتبات الى البـــلاد والعربان الكائنين ببـــلاد البحيرة يدعونهم للمحاربة والمجاهدة •

وفى يوم الأربعـــاء ٢٩ محرم ســـنة ١٢٢٢هـ (ركب الســـيد عمر النقيب والقاضى والأعيان ، ونزلوا بناحية بولاق لترتيب أمر الخندق (الذى استقر الأمر على حفره من باب الحديد الى البروكان الفرنسيون قد حفروه من قبل فى مواجهة الصد العثمانى لحملة نابليون على الشرق) وصحبتهم قنصل الفرنساوية وهو الذى أشار عليهم بذلك ، وصحبتهم الجمع الكثير من الناس والكل بالأسلحة)(٢٩) •

وهكذا أوضح الجبرتى حالة كل طرف من الأطراف التى تؤثر فى صنع القرار فى مصر من حملـــة فريزر ، وأتى عرضـــه خاليا من تأثـــير الصراعات ، والمواقف الدولية على اتخاذ بريطانيا لهذا القرار وبخاصة (الصراع الانجليزى الفرنسى) كما أتت يومياته خالية من التفاصـــيل

---

(٢٩) عبد الرحمن الجبرتى ـ المرجع السابق جـ ٣ ص ١٧٩ : ١٨٥

الدقيقة التى شهدتها كل من الساحة العثمانية والساحة الفرنسية ازاء تلك الحملة ، وان كان قد أشـــار الى مدى اهتمام القنصـــل الفرنسى بالموقف فى مصر ، ورؤيته لكل الاستعدادات الداخلية ، وان لم يشر الجبرتى الى ذلك الاهتمام يعبر عن موقف الحكـــومة الفرنسية من ذلك الحـــدث .

وفى اشارة موجزة سريعة يتحدث الجبرتى عن تعاون فرنسى عثمانى ضد الحملة فيقول (وفى ليلة الخميس ١٦ محرم ١٢٢٢ هـ ذكر أنه وصلت الى الانجليز بالاسكندرية عمارة العثمانيين والفرنساوية وحاربوهم فى البحر وأحـــرقوا مراكبهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمـــة ، ولم يبق منهم الا القليل) ولم يتورع الجبرتى عن ذكر انه لم يستطب تلك الأخبـــار غير الدقيقة فيقول (... واستمر الأمر فى هذا الخلط القبلى والبحرى عدة أيام ، ولم يأت من الاسكندرية ســـعاة ولا خبر صـــحيح)(٣٠) ونوضح لنا جملة الجبرتى الأخيرة عن مدى تحريه للخبر الذى يورده وتحمل اشارة صريحة الى حرص الجبرتى على ايراد الخبر الصحيح .

الانجليز والشعب المصرى فى رشيد :

يصور الجبرتى صورة دقيقة لأحداث رشيد ، ويشـــير الى الدور البارز والمشرف الذى لعبه الشعب ضد الحملة ، ويشيد بتعاون فئـــات وطبقات الشعب ضد الحملة فيقول :

(... وفى يوم ٢٤ من محرم ١٢٢٢هـ وردت أخبار من ثغر رشيد يذكرون بأن طائفة من الانكلـــيز وصلت الى رشـــيد فى صـــبح الثلاثاء ١١ من محرم ودخلوا الى البلد وكان أهل البلدة ومن معهم العســـاكر متنبهين ومستعدين بالأزقـــة والعطف وطيقان البيوت ، فلمـــا حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية ، فألقوا ما بأيديهم من الأسلحة

---

(٣٠) عبد الرحمن الجبرتى – المرجع السابق جـ ٣ ص ١٧٩ .

وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة ، وأسروا الباقين وفر طائفة ، منهم الى ناحية دمنهور وأرسلوا السعاة الى مصر بالبشارة فضربوا مدافع ... وأسرعت المبشرين من أتباع العثمانيين الى بيوت الأعيان ... فصار الناس ما بين مصدق ومكذب)(٣١) .

ويصف الجبرتى مواكب النصر فيقول (.. وفى يوم الأحد ٢٦ محرم ١٢٢٢هـ أشيع وصول رءوس القتلى ومن معهم من الأسرى الى بولاق فهرع الناس بالذهاب للفرجة ، ووصل الكثير منهم الى ساحل بولاق ، وركب أيضا كبار العسكر ومعهم طوائفهم للاقائهم ودخلوا بهم من باب النصر وشقوا بهم من وسط المدينة ... ورءوس القتلى معهم على نبابيت ... وفى يوم الاثنين ٢٧ محرم ١٢٢٢هـ وصل أيضا جملة من الرءوس والأسرى الى بولاق وعدتها مائة رأس وواحد وعشرين رأسا وثلاثة عشر أسيرا ومنهم جرحى .. وشقوا بهم وسط المدينة آخر النهار) ونتوالى قصة مواكب النصر فيذكر الجبرتى أنه (وفى يوم الأربعاء ١٧صفر ١٢٢٢هـ وصلت الى ساحل بولاق مراكب وفيها أسرى وقتلى وجرحى فطلعوا بهم الى القلعة ... وكان مجموع الأسرى أربعمائة أسير وستة وستين أسيرا والرءوس ثلثمائة(٣٢) ونيف وأربعون)(٣٣) .

ولم يفت الجبرتى نقل صورة أكثر وضوحا لتلك العملية الشجاعة التى قام بها أهل رشيد وتصوير الحالة النفسية التى لازمت ذلك الانتصار فيقول (ولما وصلت الشرذمة الأولى من الانكليز الى رشيد ودخلوها من غير مانع وحبسوا أنفسهم فيها فقتلوا وأسروا وهرب من

---

(٣١) عبد الرحمن الجبرتى ـ المرجع السابق جـ ٣ ص ١٨٢ .
(٣٢) هكذا فى الأصل ـ ولعله قصد ثلاثمائة .
(٣٣) عبد الرحمن الجبرتى ـ المرجع السابق جـ ٣ ص ١٨٣ .

هـرب ووصـلت الرءوس والأسرى وأشرعت المبشرون) لتبليـغ تلك الأنباء الى الباشا والأعيان ويشير الجبدتى الى أثر النصر على الباشـا فيقول (••• فعند ذلك تراجعت اليه نفسه وأسرع فى الحضور)من أسيوط (وتراجعت نفوس العساكر وطمعوا فى الانكليزوتجاسروا عليهموكذلك أهل البلاد ، وقويت هممهم وتأهبـوا للبروز والمحاربة واشتروا الأسـلحة ونادى بعضهم على بعض بالجهاد ، وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق وأعلاما وجمعوا من بعضـهم دراهم وصرفوا على من انضم اليهم من الفقراء وخرجوا فى مواكب ، فلما وصلوا الى متاريس الانكليز دهموهم من كل ناحية على غـير قوانين حروبهم وترتيبهم وصدقوا فى الحملـة عليهم وألقـوا أنفسهم فى النـيران ولم يبالوا برميهم وهجموا عليهم واختلطوا بهم وأدهشوهم بالتكبيروالصياح حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم وألقوا سلاحهم وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا اليهم لذلك وقبضـوا عليهم وذبحوا الكثير منهم وحضروا بالأسرى والرءوس وفر الباقون الى من بقى بالاسكندرية)(٣٤) •

ولم يشر الجبرتى الى خسائر الجانب المصرى فى تلك الموقعة ، وكأن حالة الانتصار على الانجليز قد صرفته عن التفكير فى القاء الضوء على الجوانب الأخرى للحادثة التاريخية •

ويصل بنا الجبرتى الى نهاية حملة فريزر بالخيبة والعار فيقول : (••• وفى رابعه ٤ رجب ١٢٢٢هـ وردت مكاتبات من الباشـا بوقوع الصلح بينه وبين الانكليز واتفقوا على خروجهم من الاسكندرية وخلوها ونزولهم منها وأرسل يطلب الأسرى الانكليز)(٣٥) •

---

(٣٤) عبد الرحمن الجبرتى ـ المرجع السابق جـ ٣ ص ١٩٤:١٩٦.
(٣٥) عبد الرحمن الجبرتى ـ المرجع السابق جـ ٣ ص ٢١٤ •

ويضيف (وصورة ما حصل أنه لما وصل الباشا الى ناحية الاسكندرية مراسل الانكليز وحضر اليه أنفار منهم واختلى معهم ، ولم يعلم أحد ما دار بينهم من الكلام ، وذهبوا من عنده وأشيع الصلح وفرحت العسكر لأنهم لما رأوا صورة المتاريس والطوابى والخنادق هالهم ذلك)(٣٦) .

ولو كان الجبرتى على علم تام بالأحداث الدولية لذكر فى حولياته أن هناك أسبابا قد دفعت بريطانيا الى طلب الصلح مع محمد على ، وعموما فان تلك الأسباب تشكل هزيمة الانجليز فى رشيد جزء منها ، بينما كان خروج روسيا من الحرب ضد تركيا وعقد صلح بينها وبين نابليون عرف بمعاهدة تلست Tilsit ، وقد أعقب ذلك عقد صلح بين انجلترا والباب العالى على أساس الجلاء عن مصر فوقع الانجليز اتفاقية دمنهور مع محمد على وبدأ انسحابهم فى سبتمبر ١٨٠٧م .

ويعلق الجبرتى على انتصار المصريين وهزيمة الانجليز فى رشيد فيقول (... وهذه الواقعة حصلت على غير قياس .. وقد أفسد الله رأى كل من طائفة الانكليز والأمراء المصرية وأهل الاقليم المصرى لبروز ما كتبه وقدره ... أما فساد رأى الانكليز فلتعديهم على الاسكندرية وسماعهم بموت الألفى وتغريرهم بأنفسهم ، وأما الأمراء المصريون فلا يخفى فساد رأيهم بحال ، وأما أهالى الاقليم فلانتصارهم لمن يضرهم ويسلب نعمهم وما أصاب من مصيبة فبما كسبت أيدى الناس ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ... ولم يخطر فى الظن حصول هذا الواقع ولا أن الرعايا والعسكر لهم قدرة على حروب الانكليز وخصوصا شهرتهم باتقان الحروب .. فقد حاربوا الفرنسية وأخرجوهم من مصر)(٣٧) .

---

(٣٦) عبد الرحمن الجبرتى – المرجع السابق جـ ٣ ص ٢١٥ .
(٣٧) الجبرتى – المرجع السابق جـ ٣ ص ١٩٤ .

ولعل اخضاع الجبرتى نتيجة الموقعة للارادة الالهية ه والذى جعل بعض المحللين يرى أن (الخط العام الذي يحكم فهم الجبرتى للتاريخ هو النظر اليه باعتباره محكوما بحكمة جبرية تحقق الارادة العليا أو الخالدة)(٣٨) •

وفى اعتقادنا أن هذه العبارات التى ختم بها الجبرتى تحليله للهزيمة التى حلت بالانجليز فى رشيد لتدلل على أنه كان على درجة سامية من الايمان بالله سبحانه وتعالى وهذا الايمان قد جعله يسلم بأن ما يحدث فى ملك الله قد قدر وأريد من قبل ، ومع هذا فلا مانع من أن يبحث الجبرتى عن أحداث معقولة يبنى عليها حكمه وتقييمه للموقف •

وقد رأى الجبرتى حالة الجيش المصرى من ناحية وعاش ما أنزله الجيش الانجليزى بالفرنسيين فى أبى قير — من قبل — كما أنه لمس عن قرب قوة الصراع الناشىء بين القوى السياسية المصرية وحالة الجند وعدم وجود قوة عسكرية يسهل تطويعها وتوجيهها لهدف كهذا ، وفى تقديره أن هذه الأمور قد جعلت الانتصار المصرى على الجيوش الانجليزية أمرا عسير التحقيق •

ولم تمنع الجبرتى عروبته أو ثقافته الدينية الاسلامية من أن يذكر تلك الحقائق المرة عن حالة مصر السياسية ، ولم تمنعه أيضا من ذكر ماللانجليز من قوة عسكرية واعلان أنهم قوة يصعب الانتصار عليها •

وقد أشار الجبرتى فى تقييمه لهذه الموقعة الى أن القوة التى حسمت المعركة هى الشعب المصرى حيث أشار الى أن العامة هم الذين صنعوا تلك الملحمة ويبدى الجبرتى أسفه على المعاملة التى قوبل بها هذا التصرف وهذا النصر الذى أحرزه العامة فيقول (ولبت العامة شكروا

---

(٣٨) صلاح عيسى — منهج عبد الرحمن الجبرتى فى رؤية الظواهر التاريخية ص ١٥٢ : ١٦٢ بحث ندوة الجبرتى •

على ذلك أو نسب اليهم فعل ، بل نسب كل ذلك الى الباشـــا وعساكره وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد لك)(٣٩) .

ويأخذ البعض على الجبـــرتى ما أطلق عليه الجبـــرية التاريخية واخضاع النتائج التاريخية لحتمية الارادة الالهية ويلتمسون له عذرا فى أن هذا الفهم قد أتى اليه من من ثقـــافته الدينية وتعصـــبه السنى وانتمائه الصوفى ويضيفون بأن اطارا من الفهم الأسطورى قد أحـــاط بهذا كله نتيجة للتدهور العقلى الذى كان سائدا فى عصره(٤٠) .

ولعل من رأوا ذلك قد اختلط عليهم أمر الثقـــافة الدينية والانتماء الصوفى مع الفهم الأسطورى فلم يستطيعوا التفريق بينهما ، وقد كان من الأجدى أن يتجه هؤلاء الى دراسة واقعية لتاريخ الجبرتى ، حتى يطلعونا على ما تضمنه من أساطير .

ان ثقـــافة الجبرتى الاســـلامية ورفعة خلقـــه جعلته أكثر تأهلا للتصدى لكتابة التاريخ فتلك الثقافة وهذا الخلق هو الذى جعل الجبرتى ينكـــر ما للانجلـــيز فيشيد بعـــدم اضرارهم بالأهـــالى بعـــد نزولهم الاسكندرية ، ويشير الى مدى قوتهم بعد هزيمتهم فى رشـــيد ، وهذه الاسلامية وذاك الخلق هذا الذى جعله يصدر آراءه فى ممدد على وفى الأمراء المصرية (المماليك) دون خشـــية أو خوف ، ولقد اكســـبته تلك الثقافة صراحة وجرأة لم يتوافر لكثير ممن ســـجلوا أحداثا تاريخية من قبله ومن بعده .

لقد حاول الجبرتى أن يرقى بالتاريخ الى مدارج العلوم الرفيعـــة وحاول أن يسمو به الى الطليعة فى الدراسات الانسانية ، فقد حـــدد

---

(٣٩) الجبرتى – المرجع السابق جـ ٣ ص ١٩٤ ، ١٩٦ .

(٤٠) صـــلاح عيسى – منهج الجبرتى فى رؤية الظـــواهر التاريخية ص ١٥٣ : ١٦٣ .

الجبرتى للتاريخ هدفا ووظفه وقرر له فائدة ، وقد التزم بذلك فى كتاباته وساق بعض العبارات التى تحث على العظة والاعتبار حتى يحقق التاريخ ما استهدف منه ولا عجب فى اهتمام الجبرتى بأمر العظة كفائدة من فوائد التاريخ ، فقد نشأ وتربى على مأدبة العلوم الدينية والشرعية وقد حفظ القرآن الكريم والكثيرمن قصص السابقين من الأنبياء وأقوالهم والتى سيقت للاتعاظ والاعتبار بها ، فلا عجب اذن أن يجعل الجبرتى أمر العظة ضروريا كهدف يضعه المؤرخ أمامه •

ونظرا لصدق رؤية الجبرتى ولصراحته فقد نال تاريخه اهتمام العرب والمستشرقين على السواء فاعتبروه صورة تفصيلية دقيقة للحياة الشرقية والمجتمع فى مصر ، وقد تميز الجبرتى بالدقة واستقصاء الأحداث والتحفظ فى ذكرها وتميز بالموضوعية وكتب للحقيقة وللتاريخ(٤١) •

لقد استطاع الجبرتى أن يوازن بين عاطفته والحقائق التاريخية الماثلة بين يديه فلم يقلل من شأن الانجليز وهو يتحدث عنهم كأعداء أتوا لمهاجمة مصر وانما تحدث عنهم فى حيدة كاملة فمنحهم ما لهم حينما أبدى اعجابه بعدم ابطالهم للقوانين المعمول بها فى الاسكندرية بعد الاستيلاء عليها ، كما أنه لم يطلق لنفسه العنان دون ضوابط حينما تحدث عن انتصار المصريين فى رشيد فلم يصطنع صورا لبطولات غير موجودة فى موقعة رشيد ولم يسجل قلمه سوى الحقيقة أو ما اعتقد أنه الحقيقة •

وكتابة الجبرتى تفيض بالحرارة التى من ورائها عمق انفعاله بالأحداث فهى صورة نابضة بالحياة ، فقارىء الجبرتى يحس بأنه يعيش

---

(٤١) د• أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ الجبرتى مؤرخا ص ٣٥ ندوة الجبرتى •

الجو الحقيقى للشارع والواقع المصرى فى مطلع القرن التاسع عشر ، وتناول الظاهرات التاريخية تناولا دقيقا صادقا وفيا فلم يقتصر على الكتابة عن علية القوم وانمـا فتح صفحات كتابه لتدوين كل الأحـداث صغيرها وكبيرها ليستفيد من يشاء فى موضوع دراسته .

ونظرا لأن الجبرتى لم يك أحد المسئولين فى الدولة ولم يشـهد عصره تطور وسائل المواصلات والاتصالات وانتشار العلوم فان كتاباته قد أتت خالية من التحليل الكامل الذى يتناول القضية من كافة جوانبها ومناقشة كل أطرافهـا وانما انصـب تحليله على الواقع المصرى دون احاطة أو الملم بالسياسة الدوليـة أو المرامى الكـامنة وراء التصرفات والمواقف ، وان لم يبخل — فى حدود ما توفر لديه من معلومات — عن التحليل والتقييم لبعض المواقف الدولية .

وينتمى الجبرتى الى المؤرخين الاسلاميين التقليديين الذين ألفوا على طريقـة الحوليـات وأتقنـوا فن التراجم ، والجبرتى قد فسر الأحداث التاريخية تفسيرا دقيقا وحللها تحليلا صادقا وربطها بالارادة الالهية ولا ضير فهو شخص مسلم تربى فى بيئة مسلمة ودرس القرآن فى صباه وتلقى كثيرا من العلوم الدينية التى جعلته أكثر دقة وأكثـر موضوعية فى تحليله للأمور ، كما جعلته تلك الدراسة أكثر حيدة .

كان الجبرتى جريئا فى تناوله لأية حادثة مهما كانت قوة شـكيمة أطرافها فحين تحـدث عن محمد على باشـا وهو حاكم لمصر لم يغفل تقاعسه فى الصعيد وتأخره عن العودة مسرعا لصد حملة فريزر — وقد يكون محمد لى مدركا لأهمية الأمن وتوفير حد أدنى من التفاهم مـع المماليك أو اضعاف شوكتهم قبل التوجه الى مصر فالاسكندرية للقـاء حملة فريزر — وهنا سجل الجبرتى وجهة نظره فى تأخر محمد على باشا الذى كان غامض النوايا والمرامى فى فترة حكمه الأولى .

ولم يك الجبرتى أقل ضراوة فى حديثه عن المماليك بل أبدى وجهة نظـره فيهم تحت اسـم الأمـراء المصريـة دون أن يخشى فى الحـق لومة لائم •

وقد جرت على الجبرتى صراحته المتاعب الكثيرة ، ولعله قد تعرض فى حياته لما يمكن أن يتعرض له الكاتب الصحفى أو المستقل فى بعض المجتمعات الشمولية الدكتاتورية،وعلى الرغم من ذلك فانه أوتى الشجاعة الكافيةليستمر فى مواصلة عمله حتى قبيل وفاته(٤٢) •

ويمكن أن نؤكد هنا أن للجبرتى فكرا تاريخيا يخضع للتعريف الذى وضعه للتاريخ فى معظم جوانبه،وأنه قد وظف التاريخ لخدمة هدفمحدد وواضح قد أشار اليه فى بداية كتابه عجائب الأثار •

وتتمـيز مدرسة الجبرتى فى التاريخ ، أو الفكـر التاريخى لدى الجبرتى بعدد من المميزات من أهمها :

١ ــ الدقة فى استقصاء الحوادث والتحفظ فى ذكرها •

٢ ــ توخى الموضوعية والبحث عن الحقيقة التاريخية بعيـدا عن العـاطفة •

٣ ــ التسجيل الكامل للأحـداث التى توافرت عنـاصرها لديه ، والاهتمام بكافة التفاصيل حتى تتضح الصورة كاملة أمام القارىء •

٤ ــ الجرأة والشجاعة فى ابداء الرأى وتسجيل الحدث ــ كما هو ــ دون مداراة أو تعمية للحقائق •

٥ ــ التحليل أو محاولة التحليل للحدث التاريخى الذى يعرضه •

٦ ــ محاولة ربط التاريخ بالعلوم الدينية السامية ، والتدليل على

---

(٤٢) د• أحمد عبد الرحيم مصطفى ــ الجبرتى مؤرخا ــ ص ٤٠ ندوة الجبرتى •

العبرة والعظة كوظيفة من أسمى وظائف التاريخ ، وقد دفعه هذا الى الاستدلال ببعض آى الذكر الحكيم ليدلل على ارادة الله أو سير الأمور حسب ارادته سبحانه •

وبعد / فهذه صورة لتناول الجبرتى حادثة من الأحداث التاريخية المؤثرة فى تاريخ مصر الحديث والتى سجلها لتشهد له بالصدق والتجرد من تأثير العاطفة التى تنأى بأصحابها بعيدا عن الواقع ، كما تكشف تلك الصورة عن تحليله الدقيق للحدث فى ضوء ما توفر له من مادة اعتقد أنها صادقة موثقة ، ويحمل عرضه صورة تفيض بالجرأة فى قول الحق دون رهبة أو خشية سلطان أو جبروت حاكم ، كما تسجل بحرارة وصدق الحالة المشرفة التى ظهر بها تماسك الشعب المصرى ابان الملمات — مهما كان تنازع السلطات قائما بين من هم على راس الادارة فى هذا البلد — وتكشف الدراسة عن غيرته على مصر وحبه لها دون أن يغمض الحب عينيه عن رؤية الأمور بمنظار محايد ، فيتعرض لمحاسن الأعداء بمقدار تعرضه لمساوىء الادارة المصرية •

فللتاريخ عند الجبرتى هدف وغاية رفيعة سامية تحدث عنها الجبرتى فى بداية كتابة حولياته وعمل من أجلها وسعى الى تحقيقها من خلال دراسته لظواهر التاريخ وأحداثه فهو مثال للفكر التاريخى الدقيق ، ونموذج من النموذجات الطيبة التى أفرزها المجتمع المصرى والتى تسهم اسهامات طيبة فى ساحة الدراسات الانسانية •

رحم الله الجبرتى ، ووفق من يحاول التأريخ الى اقتفاء أثره حتى نجد التاريخ المصرى قديمه ووسيطه وحديثه ومعاصره على تلك الصورة الواضحة المحايدة •

د• مالك محمد رشوان
مدرس التاريخ فى كلية اللغة العربية
بأسيوط